

الإهداء

إليها...

أحلم أن نلتقي
على خمر معتق
وزهر مفتق
في سدره منتهى
وبدر مشتهى
وسر منمق

الjasوسان والخليفة

كانت حبيبتي هبة نرتجف هلعاً وهي تطوق عضدي الأيمن،
تكد تلتحم بي، كان اضطرابها واضحاً، وارتجافها يكاد يشنق
الكلمات المتزحلقة من بين شفثها، وما كنت أحسن حالاً منها، إلا
أن دهشتي كانت أكبر من خوفي، رحت أثبت بصري على المشهد
حتى كادت أجفاني تفقد حركتها أيضاً، لزمنا مكاننا محاطين
بأفنان تعالت تحتضن جذع شجرة زيتون عملاقة، كان المكان
فسحاً، تتعانق فيه عشرات من أشجار مختلفة، اعتلت
جذوعها وأغصانها فوانيس غطيت بزجاج شفاف يغلب عليها
اللونان الأحمر والأخضر، وامتدت حول الممرات أشجار أزهار
متعانقة، يتوسط كل ذلك بركة صغيرة بها نافورة تمج الماء
بهدوء، وخلف البركة بسطت زراعي ونمارق، يجلس الأمير في قلبها
متكناً على جدار، مرتفعاً قلباً عن المحيطين به، وخلقه رابة
سوداء كبيرة كتب عليها بالأبيض "لا إله إلا الله محمد رسول الله"،
وتحتها بالضبط "إن الحكم إلا لله"، وعن يمينه حارس يرتدي

فاتحة

بتنا نمسد وجه الليل الكالج، نخضب لحيته الدامسة،
نخوض لججه الزنجية، نتراذذ عليه حبات من بياض القلوب،
ننسخ لهاره رداء من خيوط الشوق، نزعج سبات العصافير،
ندغدغ أخصم الشمس، نمسح عن خد البراعم وحشية
الصقيع.

هي الأزمان تعبر أمواجاً من سراب، تغشانا بالبلاهة، تسخر
منا، تحصد من أحداقنا حزم الضوء، تزرعها بساتين للملح
الأجاج.

من أي العيون سنعرج ولا عيون؟
في أي الأنهار نستحم وقد كفتنا الجفاف؟
ونبيت نصرخ في الخواء اللعين:
- أيتها النجمات الكفيفات... اتقدي. كفاك كل هذا
الخنوس.

- أيها البدر الأخرس... تبسم، كم يقتلنا هذا العبوس.
- أشرق يا عروس السماء.
- أعيدي إلينا دفء الأنبياء.
نلج في السؤال.
نلج في الدعاء.

عُدّة الحرب كاملة، يوزع نظراته في كل اتجاه، ويشد بهمناء
مقبض سيفه، كأنما هو في أقصى حالات الاستعداد لخوض أي
معركة مفاجئة، وقربها منه قلب خادمان مطرفين غير أن
انتباهها شديدا كان يبدو عليهما، لتلبية أية أوامر، وتوزع في
المجلس كهول وشيوخ بالبينتهم البهضاء، ولجأهم التي عبت
الشيب بأغليها، ودون أن تكف أصابعهم عن العيث بحبات
السبحة، ظلوا يتبادلون حديثا يرتفع حيناً حتى يصير جلبة.
وقد تنافست إلى أسماعهم نحنة الأمير، الذي راح يجمع
أطراف ثوبه، ويمسك لحبته المشقراء دون أن يرفع رأسه، فاعتدل
جميع من كان في المجلس، ونحروا ألسنتهم، مد الأمير أصابعه إلى
شاب متشابخ يجلس إلى جواره ليستمع حماسته إلى الحديث، وهو
يقول:

- ألا تسمعنا يا أبا سلمان التهرتي؟

سكت أبو سلمان فجأة كأنما ابتلع لسانه، أعاد الأمير
نحته، بهمد الطريق لكلماته، حمد الله وأثنى عليه بما يليق
بمقامه، وصلى على رسوله وصحابته جملة، وخص بالذكر أبا
بكر وعمر، وقال:

- ولعل أحدكم يغمز في غيبتنا، ويقول ما بال هؤلاء حادوا عن
سنة رسول الله وصاحبيه أبي بكر وعمر، فوالله العظيم ما يسرنا
ذلك ولو ملكنا كنوز سليمان بن داود، وصناديق فارون التي تنوء
بحملها العصبة من أولي القوة من الإنس والجن، ولقد من الله
علينا فكحل أبصارنا بأنوارهم مذ خرجنا إل هذه الدنيا الفانية،

ثم قضينا ما مضى من أعمارنا بين تعلم لكتاب الله وسنة رسوله
وجهاد في سبيله، ونسأل الله تعالى أن يلقاه مخلصين له الدين،
على درب مبادئنا وشهادتنا أبي الخطاب عبد الأعلى بن السميع
المعافري، والحارث الحضرمي، والإمام أبي الزاجر إسماعيل بن
زياد اللخوسني، رضي الله عنهم جميعاً.

ثم رفع رأسه بنسج الوجوه كأنما يتجهى اندعالاتها، وتلحج
ثانيه، ورفع عمامته، ثم أعادها حيث كانت، كأنما أحس بشدة
الحرارة فأراد أن يهوي شعره الأشقر الكثيف الذي امتد بفعل
أذنيه ورقبته، واستدار فأشار بأصابع يمينه التي زينها خواتم
ثلاثة إلى حارسه دون أن ينظر إليه، وقال:

- ما بال قوم يستكثرون علينا حارساً يحمينا في زمن اشتدت
فيه ظلمات الفتن، حتى ليكاد الواحد منا يُخرج يده فلا يراها،
ألم نقيض للأمة جميعاً من يحرسها ويشيع الأمن والطمأنينة بين
جناحها؟ ألم ندفع من بيت المال كل ما يؤمنهم من خوف، كما
دفعنا ما يطعمهم من جوع؟ ونحن فرد في هذه الأمة لنا ما لها
وعليها ما عليها، القوي فينا ضعيف حتى يؤخذ الحق منه،
والضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له، والله ما ضيع عمر - رضي
الله عنه وأرضاه - إلا غفلته عن الحراس، وقد عاش بين ظهرائي
من هم أقرب إلى الله منا.

وسكت يثقل عينيه في الحاضرين كأنما ينتظر تعقيباً على
مقاله، ولم يطل الأمر حتى أسرع أحدهم - وكان في سنه أو أكثر -
يستأذن في الحديث بإشارة من يده، وقال، وهو يوزع نظراته بين

الأمير والحاضرين:

-حاشا أيها الإمام أن تجرؤ الألسنة على تقول ما قلت، ونحن
وسائر المؤمنين نشهد باستقامتك وعدلك، ونشهد لك بما قدمت
في سبيل دين الله، خلفتك الأقدار بينهما في بيت الله الحرام كما
خلفت رسول الله من قبل، ثم أخذت بيدك في رحلتك إلى
القيروان، ثم في عودتك إلى المشرق للاستزادة من العلم، على يد
الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، إمام الإباضية الأكبر عليه السلام،
ثم في ما عاتينته من اعتكاف في سرداب الإمام أبي عبيدة خمس
سنوات كاملة تجنبها للظلمة من بني أمية، ورحلة الجهاد التي
خضتها تحت راية الإمام الشهيد أبي الخطاب عبد الأعلى بن
السمح المعافري اليماني، رحمه الله ورضي عنه.

وردد الجميع الترحم والترضي بصوت أعلى حتى اهتز المكان،
وحتى سُمعت أصوات نسوة تأتي من غرف الحريم، وما كادت
تخفت، حتى رفع الأمام رأسه وقد غشيه حزن شديد وقال:

-عليه اللعنة ابن الشعث، سيف العباسيين لعنهم الله، وقطع
دابرهم جميعا، وفل سيوفهم التي امتدت لقتل الإمام، يعلم الله
كم بذلنا من أرواحنا للدفاع عنه، غير أنه ما كان يهتم بنفسه ولا
بعباته، كان كل همه أن ننجو إلى الجبال الحصينة، كي لا تموت
دعوة الحق بموتنا، وهانحن إخوتي معكم وبكم، نقيم دولة
الإسلام، دولة على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله
عليهم.

على فتي كان يقوم في المجلس، يؤرخ شايها على الحاضرين:

مدني هبتي بدا نخوض في الدروب الكنيبة. مديها نطو هاتيك
العقبات الكأداء.

نخوض من بين فرث للمأساة. ودم للظلام. نعدو معا.
ننقلت من قبضة الليل. تسلمنا القبضة إلى قبضة. يسلمنا
المغلب إلى مغلب. برائن في أذرع أخطبوط.

نمتطي شعاعا. يعبر بنا فجأ كمنم الغياط. نسري. نعرج.
نستوي على عرش الربوة. يتنزل عليها مجللا بالضياء.

-إنه القطب.

نتمت.

-إنه القطب.

نتمت هبة.

ثارت في أعماقي حرقه السؤال. هزني الدهشة وهو يجيب:
-لا بد أن تخوضا جبالا من لجج الظلام. بحثنا عن الطائر
العجيب. معه مستحقان الحلم.

واختفى فجأة كشهاب في عمق السماء.

وكفنا الظلام. وانقرزت نصال البرد الامن في أعماق
الأعماق. لا مناص الآن من أن نخوض خلف الحلم. لن
نستسلم لعبث الظلام.